وضع فلسطين في عالم مشتّت

سلامة كيلة

حين انفجرت الثورات في البلدان العربيّة، ظهر أنّ فلسطين ضاعت في متاهات التركيز على الثورات، فاختفت من الإعلام إلى حدّ أن "نخبًا" فلسطينيّة اعتبرت ذلك مؤامرةً على القضيّة الفلسطينيّة، وتغييبًا لها؛ حيث ظهر خلال العقود القليلة الماضية أنّه من المهمّ أن تبقى القضيّة الفلسطينيّة متصدرّةً الإعلام بصرف النظر عمّا يجري في الواقع، بعد أن استمرّت سياسة الدولة الصهيونيّة في السيطرة على الأرض وبناء المستوطنات في الضفّة الغربيّة، وجرى دفن اتّفاق أوسلو مع إبقاء السلطة الفلسطينيّة لكي تقوم بواجبها الأمنيّ، وتكريس غياب فلسطين فعليًّا.

فإذا كانت القيادة الفلسطينيّة قد قبلت بحلّ الدولتين منذ أن بدأت في التمهيد عبر تنازلات متتالية منذ سنة 1974، واشتغلت بما يدمّر المقاومة الفلسطينيّة، فإنّ الأمور وضّحت منذ سنوات أنّ حلّ الدولتين هو وهْم، وأنّ هدف الدولة الصهيونيّة من اتّفاق أوسلو كان يتمثّل في كسب الوقت من جهة، وتشكيل "قوّة أمنيّة فلسطينيّة" تقوم بدَوْر القامع لنشاط الفلسطينيّين في كلّ من الضفّة الغربيّة وقِطاع غزّة، بدلًا من أن تُبقي هي قوّاتها مستنفَرة في هذه المناطق من جهة أخرى. وكسب الزمن يهدف إلى السيطرة الكاملة على الضفّة الغربيّة، وحصر السكّان في مناطق محدودة ومحاصَرة بأشكال متعدّدة من الحواجز العسكريّة والطرق الالتفافيّة والجدار العازل. وكرّست إسرائيل انفصال الضفّة الغربيّة وقِطاع غزّة بعد أن أوجدت طرفين يتقاتلان على السلطة.

كلّ ذلك كان واضحًا منذ زمن طويل، لكن السلطة الفلسطينيّة استمرّت في التفاوض ولا زالت، حتّى بعد أن توصّلت إلى أنّها مفاوضات "عبثيّة"؛ حيث ليس في قاموس الدولة الصهيونيّة فكرة حول "دولة فلسطينيّة"، وهذه إحدى لاءات خمس طرحتها منذ سنة 1967. وكلّ الوضع الدوليّ لا يسير نحو الضغط من أجل الحلّ القائم على الدولتين؛ فالدولة الصهيونيّة هي "قاعدة عسكريّة" مغلّفة بمجتمع "مدنيّ"، هدفها ردع تطوُّر الوطن العربيّ ووحدته. وبالتالي فالمنظور الإمبرياليّ يقوم على إبقائها قوّة مهيمنة، وهذا يستلزم توسُّعها وفرضها كقوّة إقليميّة، وتحقيق الحلّ وَفْق رؤيتها ومصالحها.

لهذا كان وضع القضيّة الفلسطينيّة يتراجع نتيجة سياساتٍ كانت تضرّ بها، وتحوُّلاتٍ إقليميّة وعالميّة تذهب بعيدًا عنها. فقد انهارت الاشتراكيّة لتتفرد أميركا، لكن الرأسماليّة غرقت في أزمة مستعصية بعد الانهيار الماليّ الذي حدث سنة 2008، فانفتح العالَم على تناقضات وصراعات وتقاسم لم ينتهِ بعد، وربّما لم يبدأ بعد. لكن ليس من الواضح أنّ للقضيّة الفلسطينيّة موقعًا في كلّ ذلك؛ وذلك أنّ كلّ الرأسماليّات تعود لاحتضان الدولة الصهيونيّة، وها إنّنا نجد روسيا تتقدّم سريعًا لكي ترث أميركا بعد أن انسحبت هذه الأخيرة من "الشرق الأوسط". وضمن ذلك، نجد أنّ الميل العالميّ العامّ يقوم على ترحيل اللاجئين الفلسطينيّين من مخيّماتهم وأماكن تواجدهم في محيط فلسطين إلى أقاصي الأرض، كما

حدث مع فلسطينيّي العراق الذين نُقلوا إلى أميركا اللاتينيّة بعد أن لم تسمح لهم دول الجوار (الأردنّ وسوريّة) بالدخول إلى أراضيها. وبات فلسطينيّو سوريّة معرَّضين للتهجير بعد التدمير الذي قام به النظام لمخيّماتهم، من درعا إلى اللاذقيّة وحلب وحمص إلى مخيّم اليرموك، حتّى مخيّم خان الشيح. وكذلك فلسطينيّو لبنان يعانون من التضييق، وهو ما يجعلهم يسعون إلى الهجرة ثانية. وكذلك إنّ فلسطينيّي الأرض المحتلّة سنة 1948 يعانون من التضييق والقمع والتهميش.

كانت الأوضاع تشير إلى ميل عامّ لإنهاء القضيّة الفلسطينيّة، حتى قبل إنطلاق الثورات العربيّة، وربّما أفضت هذه الثورات إلى مسار مختلف. وهو الأمر الذي لا يجري لمسه، أو يجري تجاهله، حيث إنّ الثورات تنذر بانقلاب كبير في الوطن العربيّ ليس في مصلحة الدولة الصهيونيّة وكلّ الرأسماليّات. ولقد أدّت إلى أن يعود التفكير في انتفاضة ثالثة من قبل شباب فلسطين في مختلف مناطقها. وهذا ما تَوَضَّح في الحراك الذي حدث في الفترة الأخيرة، والمسمى انتفاضة السكاكين. وظهر واضحًا أنّ كلّ التقسيمات التي نشأت في العقود الماضية تنهار، رغم كلّ الجهود التي بُذِلت للتأكيد على أنّ فلسطين هي الضفّة الغربيّة وقِطاع غزّة، فلقد تفكّكت فلسطين هذه، وسقط الخيار القائم على حلّ الدولتين. ورغم الحواجز، والأيديولوجيا التي تحاول تكريس الفصل بين فلسطينيّي الأرض المحتلّة سنة 1948، وفلسطينيّي الضفّة الغربيّة، وفلسطينيّي قِطاع غزّة، وكذلك فلسطينيّي الشتات، فقد ظهر أنّ كلّ هؤلاء شعب. وهو شعب يراد تفكيكه وإزالته، لكي تبقى فلسطين "دولة يهوديّة". لكن لا يبدو أنّ ذلك ممكن، حيث يظلّ الشعب قادرًا على التمرّد والثورة رغم كلّ الظروف التي يوضع فيها.

لكن لا بدّ من أن يعاد بناء الرؤية والهدف بعد أن تلاشت الأهداف وتقزّمت المطالب من قبل "القيادة الفلسطينيّة". فقد انطلقت المقاومة تحت شعار تحرير فلسطين، لكنّها سرعان ما مالت إلى القبول بِـ "الحلّ الوسط" القائم على القبول بِـ "دولة مستقلّة" في الضفّة وقِطاع غزّة، الأمر الذي قاد إلى كارثة أوسلو وتأسيس سلطة الحكم الذاتيّ الإداريّ، وباتت الدولة الصهيونيّة تهضم كلّ فلسطين بعد حصر الفلسطينيّين في مَعازل. وهنا يجب التأكيد على أنّ الأمر عاد واضحًا، ويتمثّل في أنّه على أرض فلسطين يجب أن تكون هناك دولة واحدة. هذا ما تريده الصهيونيّة، وتعمل من أجله، وفي منظورها ليس هناك فلسطين، لا على الضفّة وقِطاع غزّة ولا على أيّ شبر منها؛ ليس هناك سوى "الدولة اليهوديّة". في المقابل، جرت العودة إلى طرح شعار الدولة الواحدة، الذي تجري محاولة لطرحه في إطار الدولة الصهيونيّة ذاتها، مع تغيير شكلها. لكن في ظلّ الصهيونيّة ليس من دولة واحدة، لأنّها ستكون صهيونيّة، ويجري إلحاق الفلسطينيّين بها.

كلّ ذلك يفرض أن ينتهي تقزيم فلسطين، وأن ينتهي الوهم بإمكانيّة قيام "دولة مستقلّة" في جزء منها، وكذلك ينتهي التصوّر أنّ الدولة الصهيونيّة هي دولة "طبيعيّة" هدفت إلى حلّ مشكلة يهود مشرَّدين وليست قاعدة عسكريّة لمشروع إمبرياليّ، وبالتالي يمكن أن تقبل بِـ "التنازل" عن جزء من فلسطين، وأن تقبل التعايش والسلام. كلّ ذلك يجب أن ينتهي بالضرورة، وأن يعاد بناء النظر إلى القضيّة الفلسطينيّة من منطلق أنّها قضيّة مواجهة مشروع إمبرياليّ استيطانيّ هدفه كبح تطوُّر الوطن العربيّ وتكريس تخلُّفه وتفكُّكه. وبالتالي إنّها قضيّة عربيّة، الفلسطينيّون جزء منها، وإن كانوا قد تعرّضوا مباشرة لوحشية المشروع الاستيطانيّ.

مع الحراك الجديد الذي شمل مختلف مناطق فلسطين، لا بدّ من إعادة بناء المشروع الفلسطينيّ من أجل دولة عَلمانيّة ديمقراطيّة عربيّة، تقبل بوجود "اليهود" في إطارها، انطلاقًا من أنّهم ينتمون لقوميّات أخرى، وتنطلق من أنّ

هناك عربًا يهود جرى جَرُّهم إلى فلسطين بتدخّلات متعدّدة. كذلك لا بدّ من الانتباه إلى أزمة الإمبرياليّة وانعكاس ذلك على وضع الدولة الصهيونيّة، حيث يمكن أن يتفاقم الصراع الطبقيّ فيها ضدّ الطغم الرأسماليّة المسيطرة. فكلّ ذلك هو الذي يمكن أن يقود إلى إنهاء المشروع الصهيونيّ كمشروع إمبرياليّ وكدولة قائمة على الاستيطان، واستغلال الدين اليهوديّ لخدمته.

لقد انتهى المشروع الفلسطينيّ الذي رفعته المقاومة مع سيرها نحو التسوية، ويعيش المشروع الصهيونيّ أزمة وجود مع "ضعف أميركا" وتحوّلات الوضع الدوليّ، وبالتالي ربّما غياب الحاجة إلى هذا المشروع كأداة إمبرياليّة بعد أن باتت الإمبرياليّة تعاني من أزمة عميقة. وبالتالي، نحن بحاجة إلى إعادة بناء المشروع انطلاقًا من كلّ المؤشّرات السابقة، كما يجب إعادة بناء العمل من أجل تحقيق التغيير. وستكون الثورات في البلدان العربية تحوُّلًا يساعد على ذلك، لأنّها سوف تُفضي بالضرورة إلى تأسيس نظم تتجاوز الرأسماليّة، وتتصادم مع الإمبرياليّة. وتأسيسًا على ذلك، يمكن القول بضرورة إعادة بناء المشروع التحرُّريّ العربيّ لكي يكون المؤشّر لكلّ الثورات القائمة والتي يمكن أن تحدث.